

## قصة مصرية :

### الشيخ علوان فقيه القرية

بقلم الأستاذ محمد المهياوى

الشيخ علوان فقيه القرية ، جمعت له الحياة طرفى قرنين من الزمن ، فادرك في مطامع شبابه خواتم القرن الماضى ، واكتسبت رجولته في صبايح هذا القرن ، وكان على المهديين مرجع أهل القرية فيما يتبس عليهم من شئون الآخرة والأولى .

ولما لم يكن لمسجد القرية الصغير إمام عالم ، فقد كان الشيخ علوان يتطوع وينصب نفسه إماماً فيؤم الصلوات ويخطب في الجمع والأعياد ، وكان في مجلسه بين الغادين والرائحين ملهم الآراء وموجه العزائم ، وكان قاضى الخصومات ومنقضى الأحكام ، وكانت إليه تنهى الكلمة الفاصلة فيما أحل الله وما حرم ، فلم تكن مسألة تخفى على أحد إلا فزع إليه يسأله أن يحلها فما هى إلا أن يبرح الخفاء وتذهب الغماء .

وما كان الشيخ علوان يمسك عن سائل جوابه ، ولا يكتم عن مستطلع نبأه ، ولم يقل قط فى شىء : لست أدريه ، ولم يؤخر إلى علم غده جواب ما جهل فى يومه ، فهو يعلم أنه بين أهل القرية تحفة غير معادة وفاكهة غير مكررة ، وهو لا يخشى أن تفضحه براءة الصواب مما يقول وخصومة الحق لما يفعل ، وهو لا يخاف أن يجهله أحد لأنه من ثقة أهل القرية به فى حسن من تجهيل المجاهلين وتصويب المصوبين ، بل لو أن عابراً من أهل البصيرة فى العلم همس فى أذنه أن العلم غير ما أفتى والهدى خلاف ما قال لكان حسبه من النجاة بنفسه أن يمنحه الشيخ فضل الاعراض عنه قبل أن يسمع أهل القرية أنه أساء الأدب مع شيخهم الطعظام .

وكانت للشيخ طريقته التقليدية المأثورة ، كل شىء مردود إلى تعاويذه ورقاه ، فالشر والخير كلاهما طوع التيممة يصنعها لتذهب الأسقام وتصح الاجسام ، والجرعة يستقيها لتجمع الحبين وتقطع السنة الأيمن ، والرقية يدير بها يده ليبرأ المسود ويهيش المولود ، والورقة يكتبها ليظهر المسروق وينقطع حبل المشنقة قبل أن يهوى العزير المشنوق .

أما متلفات العافية والمال وهو بقات البسودع والخرافات ، فقد شاع في أهل القرية عن تحديث الشيخ أن بعضها داء وبعضها دواء ، فلكل مصيبة في المال دواؤها من خرافة يعلمها ، ولكل بلية في النفس شفاؤها من بدنة يحتفظ بها ، وبعد ذلك فدافعتها بشيء من حزم التدبير وطب المستشفى اعتراض على الله فيما يجرى به قضاءه وقدره ! . .

ومع ذلك كان الشيخ علوان رجلاً ظاهر الصلاح والتقوى ! . . أليست التقوى أن يتوضأ فيسبح وضوءه ثم لا ينظر بعد ذلك إلى أن الوضوء نظافة وأن النظافة من الإيمان وأنها إنما كانت من الإيمان لأن فيها طب الأجسام وجلء القلوب ؟ . . أليس الصلاح أن يصلح فلا تفوته فريضة ولا نافلة ثم لا يعنيه أن تكون الصلاة رياضة الأبدان والأرواح ونور الأفتدة والنفوس ، والقيام بين يدي الله على أكل ما يتجمل به عباده من استواء الأعضاء وبهاء الطلعات ونضرة الوجوه واشراق الجباه ؟ . .

لا ، ولكن هذه المعاني كلها لا تتصل عند الشيخ بعبادة الله حق عبادته ، فهى بعض متعلقات الدنيا ، وهذه الدنيا ومعها جميع متعلقاتها ، كلهن حرام على عباد الله المخلصين ، حتى إذا جاءت تجرى وراء الرقا والتماثم أصبحت في يد الشيخ وبطنه حلالاً طيباً مباركاً فيه .

وفىما كان شيخنا علوان مطمئناً إلى سلطانه على العقول والأفتدة كان قدر الله قد انتهى إلى غاية يرى آية الله في نفسه .

ففيما كان في إحدى لياليه الضاحكة غارقاً من لطفات المتبركين وأصحاب الحاجات في عزة التوقير وجلال المهابة ، كان في الطرف الآخر من القرية شاب ينطبق على نفسه ولهاً وحرناً كلما انطبق عليه ظلام داره بؤساً ووحشة ، وكانت بين يدي الشاب زوجة قنع بها من دنياه منذ نهبأت له السعادة إلى جانبها ، وكانت هذه الزوجة نساء من وضع وايدهما البكر ، ولم تكن في صباح نهارها تشكو شيئاً من الوجع غير قليل من الخدر والتكسر يسبح في جسمها سيحان الماء ، وكانت تلك طرفات الحمى تؤذن بقدمومها ، فلم يرخ الليل حجابها على ضوء النهار حتى كانت الحمى قد أرخت حجابها على ضوء عينها فغاب ادراكها وراء هذه الغمة الطارئة كما تغيب الشمس وراء ظلمة الليل .

كان زوجها الشاب يكذب نهاره في غيط العمدة ، فلما أمسى عاد إلى داره وأحلى أمانيه أن يستقبله من فاطمة ثغرها الضاحك وكلمتها التي اعتادت أن تسمعه اليها دائماً : مساء الخير يا على ، ولكنه في هذا المساء كان عجلاً مسرناً وهو لا يدري لماذا هو عجلاً مسرعاً ، وكان يطوى عديد الخطوات في خطوة واحدة ليقترب بعد الطريق وهو لا يعلم لماذا يريد أن يقرب بعد طريقته ، وكان يتمنى لو استطاع أن يوج الزمن بعضه في بعض ليتقاصر طوله وهو

لا يعرف لماذا ينبغي أن تكون له هذه الاستطاعة ، وكان يجد في صدره هملا لا يعرف سببه ويحس في نفسه لطفة المشاق الخائف لا لطفة المشاق على أمن واطمئنان .

وارتاع الشاب حين شارف داره فلم يرتفع أمام عينيه بصيص سراجها ، هل غابت فاطمة عن الدار فسراجها غير مضيء؟ هل أخذتها نومة الأصيل فأقبل الليل قبل أن تسبقظ فتضيء السراج ؟ وحاول أن يقنع نفسه انها نائمة على صحة وعافية إذ لم تكن تغيب عن دارها في الساعة التي ترتقب فيها عودة زوجها المحبوب ، ولكنه فزع مرتاع ، بلغه الشك والتجوس في بردتين من رجاء وخوف ، ثم وجد نفسه في مدخل الدار فوقف يتسع حس الدار ويتشم عطر ريحانة الدار ، ولما لم يظفر من السكون المطبق بما يسعف أذنه وقلبه استخاص لسانه من عقلة الفزع وناداه : يا فاطمة ، يا فاطمة ، غير أن فاطمة أخلفت عاداتها فلم تجبه .

وكان يعرف مكان السراج فاضاءه ، وتكسرت ساوك الضوء الخائف على الجدران القائمة فظهرت فاطمة كالنقطة المبهمة في الأفق السحيق ، وأشرق في ضميمه صدرها وجه الطفل الوليد كالدرهم اللامع فوق التغطية السوداء ، وعاود المسكين نداء فاطمة فأجابته أنين عميق منقطع ، ومر بيده على جبينها فلذعته من وقدة الحمى جرة حامية ، ثم لم يكن بعد ذلك شيء غير أن استغرقتا الغيبوبة فحجبت أنسها عنه ، واستغرقت الحزن فتحطم احتياله ليوافقته مداومه .

ولكن هذا المسكين كيف يصنع ومن يطالب العون؟ ليس لمثل هذه النازلة غير العلم الشيخ علوان . . .

وكان الشيخ علوان لا يزال من صدر المجلس الحاشد في جلال المهابة وعزة التوقير حينما جاء "علي" يتخطى الروس كأنه يتفزز الحواجز العالية في رهان المواثبة ، فلما استقر بين يدي الشيخ صاح : ادركني يا عم الشيخ ، ساعدني يا مبدى الشيخ ، وأكب على رجل الشيخ ففسلها بدموعه ، وبعد أن استفاق الشيخ من شوة الوقار ومعة التحفظ ، قال : ما شأنك يا ولدي ؟ لماذا تبكي وأى شر أصابك ؟ ولم يزد المستغيث الباكى على أن قال : زوجتي يا عم الشيخ ، زوجتي مريضة ، ناديتها فلم تتكلم ، وأنهضتها فلم تنهض ، ووضعت يدي على جبينها فوجدته أحمى من النار ، ادركني يا عم الشيخ ، وحياة العلم اللي على قلبك ادركني . .

وخف الشيخ مع علي الى داره ليرى زوجته المريضة ، وكانت المسكينة قد عاودتها سخوة من سخوات الحمى ، فشكت في الرحم وجعا لا تطيقه ، ولم تكن تم للشيخ احاطته بعلم الأشياء كلها إذا هو انصرف قبل أن يضمن بالدواء الذي يصفه زوال هذا الوجع ، ولم يبطن بوصف الدواء فقال : هاتوا بصلة كبيرة فدقوها مع ملح وكمون ، وأمر فارسلوا في طلب

”داية القرية“ فلما حضرت أمرها أن تضع هذه البصلة في رحم المريضة ، ولم ينس وهو منصرف أن يشر عليا بشفاء زوجته بعد أن أوصاه ألا ينسى هو أيضا حلاوة السلامة .

لم يكده الدواء يستقر في مكانه حتى جعل الدم ينزف كأنما يتدفق من يابيع متفجرة ، وعند انتصاف الليل انقطع الاين وتهانت دقات القلب وبرقت العينان ، وعند انبثاق الفجر انطلق الضائر من حبه ، وغشيت الدار رهبة الموت .

كان ذلك يوم الثلاثاء ، فلما كان يوم الثلاثاء الذي يليه التمت القرية شيخها العزيز فلم تجده ، وافتقدت من زين شبابها عليا وفاطمة فلم تظفر بهما : فاطمة بين أهل القبور ، وعلى في مستشفى المجاذيب ، والشيخ علوان سجين ينتظر حكم القضاء ما

محمد المهياوي